التميز فى التعليم بين سندان الفقر ومطرقة الاستبعاد

د. محمد صبرى الحوت

أستاذ التخطيط التربوى

كلية التربية - جامعة الزقازيق

تنتاب الدول فترات من التعثر تحول بينها وبين الاستمرار فى الإسهام الفاعل فى صناعة الحضارة الإنسانية. ويتطلب عودة هذا الإسهام أن تنهض الدولة من عثرتها. هذا النهوض الذى لا يتحقق بالتمنى ولا بعطف من آخرين ولا بقروض وديون من هنا أو هناك، ولكن بجهود كل أبناء الوطن – دون أن يُستبعد منهم أحد – التى تتأثر بنوعية تعليمهم وتدريبهم وبسياق العدل الاجتماعى الذى داخل إطاره يتم هذا التعليم وذاك التدريب. وبهذا يتأكد أن أى مجتمع لا يمكن أن يرتقى فوق مستوى أفراده، ذلك المستوى الذى يتناسب طرديًا مع مستويى التعليم والتدريب اللذان يقدمان لهم. فالتعليم يبنى الشخصية القومية المميزة للمجتمع، ويعد أبناءه كقوى بشرية تحقق الطموحات التنموية للمجتمع بما يحقق التميز ويعيد له إسهامه فى صنع الحضارة الإنسانية. إلا أن الوصول بالمجتمع إلى مستوى التميز، يحتاج أن يمتلك المجتمع بداية نظام تعليم متميز يتسم بالمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص.

ولا يتحقق ذلك بمجرد إعلان الحكومة بأنها سوف تحقق عاجلاً التميز فى التعليم أو أنه سوف يكون فى مصاف الدول المتقدمة تعليميًا فى فترة زمنية قصيرة برغم أن نظامنا التعليمى يأتى فى الترتيب الأخير بين دول العالم، ولسنوات متتالية.

تدعو اليونسكو دول العالم إلى ضرورة الاهتمام بأنظمة التعليم من خلال إعلانات متتالية، هى: التعليم للجميع والتعليم للتميز والتميز للجميع. وهذا يعنى، أنه بالإضافة إلى ضرورة توفير المتطلبات اللازمة لتحقيق هذه الإعلانات، فإنه من الضرورى أيضًا الانتقال بين هذه الإعلانات فى تتال بحيث يكون إنجاز أى مرحلة منها هو شرط لازم للانتقال إلى المرحلة التالية. أى أنها حلقات متصلة يؤدى كل واحد

منها إلى الذى يليه ويرتبط بالذى كان قبله. حيث لا يجوز الحديث عن التميز للجميع فى نظام التعليم، مثلاً، قبل تلبية متطلباته ومن بينها إنجاز التعليم للجميع والتعليم للتميز.

والتميز يجب أن يتحقق فى كل عناصر منظومة التعليم الداخلية وما يحكمها ويرتبط بها من عناصر توجد خارج نظام التعليم. فيتحقق التميز فى التعليم على سبيل المثال، فى: مواد الدستور المتعلقة بالتعليم، والمبادئ الكلية لنظام التعليم، والمدخلات والعمليات والمخرجات، وهيكل نظام التعليم ومحتواه (كالسلم التعليمى، والمبانى والتجهيزات، والإدارة، والتقويم، والتمويل، والتنمية المهنية للمعلم، والكتاب المدرسى، وغير ذلك)، وسياسات نظام التعليم وإستراتيجياته وإجراءاته، وارتباطه بالمشروع التنموى الحضارى للمجتمع، واعتراف القيادات – على مستويى القول والفعل – بأنه مرتكز الأمن القومى وحارسه.

إلا أن شواهد الواقع وقضاياه تطرح عديد من التساؤلات بشأن وجود التميز فى التعليم، وبشأن إمكانية تحققه على المدى القريب، منها:

- كيف يتحقق التميز فى التعليم، ولم يتحقق بعد التعليم للجميع ولا التعليم للتميز.
- كيف يتحقق التميز فى التعليم، والفصول خالية من الطلاب لبعض السنوات الدراسية.
- كيف يتحقق التميز فى التعليم فى الوقت الذى لا تخصص الدولة له الموارد المالية اللازمة. ومن المؤشرات المرتبطة بذلك، أن نسبة الإنفاق على التعليم من الإنفاق الحكومى العام هى حوالى (٧٪)، فى الوقت الذى حددت فيه اليونسكو هذه النسبة بـ (٢٠٪).
- كيف يتحقق التميز فى التعليم، فى حين أن البيئة المجتمعية الحاضنة تعانى من عدم الاستقرار فى السياسات التعليمية مع كل تغير فى الوزراء المسئولين

عن التعليم. بالإضافة إلى عدم الاستقرار فى السياسات الاقتصادية، وتفاقم الأزمات الاقتصادية.

- كيف يدعى البعض إمكانية تحقيق التميز فى التعليم، ونحن نأتى فى المراكز الأخيرة بين دول العالم فيما يتعلق بمستوى نظام التعليم.
- كيف يتحقق التميز فى التعليم، ونحن نعانى من فقر الإمكانات المادية والمالية، بالإضافة إلى تشوه أخلاقيات المهنة وانتشار الغش والفساد وغيبة عدالة توزيع التسهيلات والتجهيزات التعليمية واستئثار الأجور والمرتبات على الجزء الأكبر من ميزانية التعليم.
- إذا كنا نعانى من ضعف قدرة كثير من الأفراد على الإنفاق على التعليم فى ضوء ما يعلنه بعض المسئولين أن التعليم خدمة يحصل عليها من يستطيع دفع ثمنها، إلا أننا لا نعانى من فقر فى القدرات العقلية التى يوزعها الخالق سبحانه وتعالى على البشر بحكمة لا يعلمها إلا هو .. وليس بناءً على غنى أو فقر أولياء الأمور.
- كيف يتحقق التميز فى مخرجات التعليم فى الوقت الذى يستبعد فيه بعضهم عن العمل فى مواقع بعينها لأنهم غير لائقين اجتماعيًا.
- كيف يتحقق التميز للجميع فى حين أنهم يحرمون أبناء الفقراء من التعليم المتميز.
- إذا كانت الدولة هى المؤتمن الوحيد على تعليم أبنائها حفاظًا على شخصيتها القومية وتحقيقًا لأهدافها التنموية، فيجب أن يكون التعليم مسئولية الدولة وحكومتها وليس مسئولية أفراد الوطن. أما تنمية المجتمع وتحقيق الارتقاء الحضارى له، فهو مسئولية الوطن بكل أفراده الفقراء والأغنياء. ولذا، لماذا يتم حرمان جزء مهم من أبناء الوطن من المشاركة الفعالة فى هذه التنمية.. برغم أنهم متميزون عقليًا، ولكن لا يقدم لهم تعليم متميز.

- كيف يتحقق التميز والحلقات بين مكونات منظومة التعليم مفقودة، كما هو حادث بين مستويات تخطيط نظام التعليم المختلفة، إن وجدت.
- كيف يتحقق التميز فى التعليم فى حين لا يتوافر الأمان الفكرى للباحثين التربويين فى قضايا التعليم المختلفة.
- كيف يتحقق التميز ونتائج الطلاب فى الامتحانات العامة ليست دالة على تنمية قدرات معرفية وإبداعية قامت بها مؤسسات التعليم تجاه الطلاب، وإنما هى نتيجة دروس خصوصية وغش وفساد فى الامتحانات والتصحيح.
- ومن ثم، كيف يتحقق تميز المجتمع، فى حين أنه لا يوفر لكل أبنائه تعليم متميز. لماذا يحرم أبناء الفقراء من التعليم المتميز ويستبعدون منه. أليسوا هم من يزرعون كل شيء، وينتجون كل شيء، ويبنون كل شيء، ويدفعون دماءهم وأرواحهم دفاعًا عن الكنانة. أليسوا هم أول من يلبى النداء ويتصدى للفداء ويلملم الجراح. أليسوا هم من بسواعدهم حفروا القناة وبنوا السد وزرعوا الأرض وأداروا المصانع وعبروا القناة فرفعوا الجباة. أليسوا هم من يحمل الكنانة على الرؤوس إن تعثرت، حتى تظل تاج العلاء مهما الأيام تغيرت.
- إن السماء لا تستبعد الفقراء فتحرمهم من التميز العقلى، فلا تحرموا تنمية المجتمع من القدرات العقلية المتميزة لأبناء الفقراء.